تجسد الله كنقيضٍ لخطيئة اليوم

الأرشمندريت أفرام رئيس دير الفاتوبيذي، أثوس

نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

أيها الآباء والإخوة الأحباء، نحتفل اليوم بأعظم حدثٍ في كل العصور وكل الأزمنة: ميلاد المسيح، "ملك كل الأعياد"، بحسب القديس يوحنا الذهبي الفم. يدخل الله حياتنا، في الوقت المناسب، في التاريخ باسم "الإِنْسَانُ يَسُوعُ الْمَسِيحُ" (١ تيموثاوس ٢:٥).

"اللهُ ظَهَرَ فِي الْجَسَدِ" (١ تيموثاوس ٣:١٦). الله يفرغ ذاته، يتواضع، يصغّر نفسه، يتضاءل بطريقة لا يمكن تصوّرها ويصير رضيعًا. طفلٌ إلهي وبشري. يصير إنسانًا، مثلنا، بلحم ودم، بروح وجسد وعقل وإرادة. المسيح، الأقنوم الثاني في الثالوث الأقدس، هو إنسان كامل وإله كامل.

الله الأبدي، الذي يتعذر الوصول إليه، ولكن الرحيم، الذي لا بداءة له، إن دخوله في واقعنا، بحسب القديس يوحنا الدمشقي، هو "أعجوبة العجائب، المعجزة الوحيدة تحت الشمس". لا شيء يقارَن بهذا السرّ العظيم الذي لا يفنى، ولا حتى خلْق الله للعالم. لقد خلق أشياء لم تكن من قبل. الآن، هو نفسه يصبح مخلوقًا، خليقةً. "الكائن يأتي إلى الوجود؛ الذي لا بداية له، يبدأ". بغضّ النظر عن مدى استنارة الفهم البشري أو الملائكي وتبصّره، يظل هذا اللغز مغطىً وغير قابل للفهم. حتى عند إعادة الولادة، فإن طريقة توحيد الطبيعة الإلهية مع طبيعتنا نحن البشر في أقنوم واحد للكلمة الإلهية لا تزال غير قابلة للتفسير.

عندما اتّخذ الله الطبيعة البشرية، لم يشعر بالضعف، ولم ينزعج من فعل ذلك، إذ بطريقة تفوق الفهم، صارت الطبيعة البشرية قادرة على احتواء اللاهوت. نحن أقرباء الله وجوهرنا الوجودي شبيه بالله. لكي يوضح لنا أن الله ليس غريباً علينا، يقول القديس يوحنا الإنجيلي أن المسيح "أتى إلى خاصّته" (يوحنا ١:١١). يؤكّد القديس غريغوريوس بالاماس أن الطبيعة البشرية فقط - وليس الملائكية - هي التي تحتوي الله وعلى شبهه وهي قادرة على تحقيق الطهارة الكاملة، لتجد مكانًا في داخل ذاتها لكل الإشباع والمجد والسلطة وقوة الروح القدس، لأننا "منذ البدء لم نكن مجرّد مخلوقات من الله، بل أولاده بالروح".

لقد علم الله أنه في وقت ما، في لحظة معينة، سوف يتّخذ جسدنا. لذلك من البداية، خُلقنا للمسيح لأننا خُلِقنا على صورة الله، حتى يكون ممكناً للنموذج الأصلي نفسه أن يسكن فينا في مرحلة ما. منذ البداية، كانت كل الأشياء على الأرض - وفي الواقع ، كلّ ما فوقها أي القوات والطغمات الملائكية - تميل نحو تدبير الإله الإنسان وقد خدموه من البداية إلى النهاية.

زعم بعض اللاهوتيين الغربيين في العصور الوسطى، وللأسف بعض الأرثوذكس المعاصرين، أن تجسّد الله كان مستقلاً عن السقوط. لقد زعموا أن الله الكلمة كان سيصبح إنسانًا حتى لو لم يخطأ آدم وحواء ولم تكن هناك حاجة للخلاص. تحدّثوا، بعبارة المصطلحات اللاهوتية، عن "التجسد غير الطارئ". لكن الغرض من التجسد الإلهي لم يكن سوى خلاصنا وتمجيدنا.

الهدف من تجسد الكلمة الإلهية ليس في المسيح، بل فينا نحن البشر. بالطبع ، الإله الذي كان بلا أم من قبل الزمن، اتّخذ أمًا، في الزمن، امرأة بطبيعتنا البشرية. أمٌ بلا خطيئة، عذراء. يقول أثناسيوس الكبير بوضوح: لو لم تكن هناك حاجة لخلاص جنسنا، لما صار الله إنسانًا. أولاً تأتي الحاجة لخلاصنا ثم تدبير التجسد الإلهي. ما لم نتمكن من تحقيقه لأن آدم وحواء ضللهما الشيطان ولم يحفظا الوصية، منحنا إياه الله بتجسده.

إن غاية السر الذي لم يُعرَف وكُتِم حتى عن الملائكة عبر العصور يُستَعلَن الآن مع ولادة المسيح من العذراء الفائقة القداسة. ومَن هو هذا المسيح؟ أفرغ الله ذاته ونزل إلينا نحن البشر حتى نرتفع إليه.

شارك الله طبيعتنا البشرية حتى نتمكن من مشاركة طبيعته الإلهية. أصبح الله ابن الإنسان، حتى نصير أبناء الله. أصبح الله إنسانًا، حتى نصبح نحن البشر آلهة.

كل التدبير المتجسد صار "لنا ومن أجلنا". ترانيم الكنيسة، وهي ترانيم لاهوتية جداً، تشدد على "لنا" و"من أجلنا" بشكل كبير. يقول قنداق عيد الميلاد "قد وُلد لنا طفل صغير" ، وفي قنداق عيد الصعود "لمّا أَتْمَمْتَ التدبيرَ الذي من أجلِنا". إن الاعتقاد بأن الله "أفرغ نفسه واتخذ صورة عبد" (فيلبي ٢:٧) من أجل خلاصنا وإعادة خلقنا، هو أكثر ما يواضِع المؤمنين. إنه يجعلنا ممتنين لله مخلصنا ويشجعنا على السعي لإرضائه من خلال الالتزام بمشيئته المقدسة وبذل أقصى جهدنا في هذه المهمة. لذلك لن تفاجئنا قصّة أبا إيسيدوروس التي قرأنا عنها في كتاب أخبار الآباء الشيوخ. حثّ أبّا بيمين أبّا إيسيدوروس على الراحة قليلاً من جهوده الدؤوبة، بسبب تقدّمه في السنين، لكن أبا إيسيدوروس أجاب: "حتى لو أحرقوا إيسيدوروس ونثروا رماده في الريح، فإن ذلك لا يعنيني كثيرًا، لأن ابن الله جاء إلى هنا من أجلنا."

عند الله، نحن البشر لسنا مجرد خليقة، بل نحن حدث خاص، وشخص منفصل أبدي، وهذه حقيقة عظيمة، مهما بدت جريئة. اعتاد الشيخ الراحل صفروني أن يقول إنك إذا قللت من قيمة رسالة الإنجيل، وهي أننا مخلوقون لملء الكمال أي للتمجيد، فهذا ليس مجرد خطأ، ولكنه في الواقع خطيئة عظيمة. ومع ذلك، فإن قبول هذا الكلام أو رفضه يكمن في الإرادة الحرة لكل شخص، وبالتالي يختبر الصيرورة إلهًا بالنعمة أو يبتعد عن إله المحبة والحياة. لأنه، كما يقول القديس غريغوريوس بالاماس "العقل المنفصل عن تأمل الله يصبح إما شيطانيًا أو بهيمياً".

في هذا الوقت الحرج بالنسبة للبشرية جمعاء، يمكننا أن نرى المزيد من الناس ينحدرون إلى حياة غير طبيعية، إما من خلال أهواء الجسد كالزنا والمِثلية، أو المشاعر الروحية كالأنانية والتفاخر والطمع والجشع. هؤلاء الأشخاص، الذين لا ينبغي أن نرفضهم كأشخاص لأننا دائمًا ندين الخطيئة وليس الشخص، بل أن نعتبرهم أعضاء مريضة في أجسادنا، يجب أن تكون صلاتنا من أجلهم شديدة وحارّة. ينبغي إيجاد ثقل موازن قوي حتى يستطيع للناس أن يتخلّصوا من الخطيئة ويعثروا على طريقهم ويرتقوا إلى ملء قامتهم وهذا كله ليس سوى الرسالة التي تنبع من ولادة المسيح: تبنّي الله لنا بنعمته. يكتب القديس غريغوريوس اللاهوتي: "الله متّحد بالآلهة ومعروف [من قبلهم]" وهذه المعرفة التجريبية واضحة ومرضية تمامًا من وجهة نظرنا، كما من وجهة نظر الله.

"الكلمة صار جسدًا" "ليبطل سلطان الموت" ويخلّصنا من قيود الموت والخطيئة. هذه البركة العظيمة التي يمنحها لنا المسيح بميلاده - خلاصنا الوجودي في الله وتمجيدنا - هي مركز الحياة الرهبانية. لدى الرهبان وعي وجودي لهذه الحالة ولهذا السبب تخلّوا عن العالم. إن ما يربط قلب وعقل وروح الراهب أو الراهبة هو معرفة الله ومحبته، وهو أقرب اتحاد واتصال ممكن بالله، ولهذا السبب يصبحون أمواتًا عن العالم. قد يعيشون في العالم، لكن لا شيء يمسّ قلوبهم. إن مواطنتهم وكيانهم كله موجودان بالفعل في السماء، كما يقول القديس بولس (راجع فيلبي٣:٢٠).

أيها الآباء والإخوة الأحباء، إن حضور المسيح وتعليمه على الأرض يجعلانا مسؤولين أمامه وتجاه العالم أجمع. هل نقبل رسالته ونحاول تطبيقها بكل ضمير صالح؟ إذا أتممنا ذلك، نرافق المسيح ونحتفل معه. الاحتفال الحقيقي بميلاد المسيح يكون عندما نشعر بولادة جديدة في الله من خلال المشاركة في النعمة الإلهية. وإذا كان ينبغي أن يولد جميع المسيحيين من فوق في الروح القدس، كم بالحري هذا ينطبق على الرهبان الذين من المُفترض أن يكونوا نورًا للعلمانيين، بحسب القديس يوحنا السينائي؟

إلى كلمة الله الذي وُلِد من العذراء النقية والذي أصبح فقيرًا طوعيًا، نصلّي أن يُغني كل واحد منّا نحن المسيحيين الأرثوذكسيين بأحلى هدايا الروح القدس، سلامًا وفرحًا ومحبة، وأن يمنح بركاته بغزارة، حتى يطلع نور معرفته وينير كل الناس في العالم. وُلِد المسيح، حقاً وُلِد!

* عظة في عيد الميلاد